القسطنطينية

بناها قسطنطينُ على أنقاض بيزنطية . كانت عاصمةً لمملكة الرُّوم الشرقية ، كما كانت رومة قاعدةً للامبراطوريّة الغربية . اختان تشابهتا بالعزّ، وعاشتا زمناً ، لكلٍّ مجدُها المؤثل ، وجلالها المهيب . وهي كرومة قائمة على سبع تلالٍ مرتفعات ، في مثل شبه جزيرة مثلّثة الزوايا يحيطُ بها الماء من جهاتٍ ثلاث : تطلُّ على بحر مرمره من الجنوب ، وتُماشي البُسفور من الشرق، وتلمس خليجَ قرن الذهب من الشمال . ثمّ ينبسط اليها من الغرب سهلٌ يقف حذاءها ، متهيّباً جلالها ، فتُشرف عليهِ من مكانها العالي كالنسر باسطاً جناحيهِ

حصّنها الرُّوم منذ القِدَم ردًّا لغارات الاعداء ، وعزّزها الترك على أثرهم صدًّا لهجمات الطامعين . فبنى الأوّلونَ سورها وابراجها ، وشادَ الآخرون حصونها وقلاعها . ولكن الطبيعة بزّت أولئك وهؤلاء في كل ما بنوهُ وشادوهُ ، فمنّعت موقعها بالهضاب المتسلسلة ، والبواغيز الضيّقة ؛ فاذا هي كعقاب الجوّ ، لا تؤخذ ، واذا هي ، كخلقِ الليث ، لا تباح

أرادها العرب ، يوم كانوا يستطيعون ما يريدون ، ففشلوا ، وحاصروها حين لم تكن مدافع ولا قنابل ، فارتدّوا عنها عاجزين . وظلت تردُّ بمنعتها غوائل الاعداء ، وتدافع بعزّتها كوارث الأيام ؛ الملك عزيز بها ، وسلالة بانيها تتوارث مجدها وتتنعّم بجاهها ، حتى دبّ الضعف الى الرُّوم ، وتغلغلَ الوهَن في نفوسهم ، يوم ابطرتهم نعمة العيش ،

واسكرتهم غبطة السلطان ، فشى عليها محمد الفاتح ، وحاصرَها من البحر والبرّ ، ثم اخذها عنوة واقتداراً في سنة ١٤٥٣

* * *

محمدُ ! كسرتَ جناحَ النسرِ ، فأهوى من سمائه ، واقتلعتَ ناب الليث ، فاستبحتَ حماه !

بناها قسطنطين ، واستأثرتَ بها أنت ؛ كانت للرُّوم فصيَّرتها الى الترك ؛ ما خفق عليها الصليب ، حتى رفعتَ فوقها الهلال ؛ بينا هي قاعدة الامبراطورية ، اذا بها دار الخلافة !

فتحتَها ببأسك ، وصنتها بحولك ومجدك ، ثمّ توارثها ابناؤك من بعدك !

ما نمتَ عنها ولكن نامَ بنوك !

عجباً ينام الترك عنها ، وعيون الروم يقظى عليها !

أمغتصبَ الروم ملكهم ، قمِ انظر الى بقايا ملكك العظيم

النسرُ الذي اصطدتَهُ قد استنسرت أفراخهُ ؛

والليث الذي اقتنصتَهُ قد استأسدتْ أشبالُه ؛

البلغارُ على ابوابِ فرنق ، والرومُ أمام الدردنيل !!

* * *

ليست فروقُ عروسَ الشرق وحدَه ، بل هي عروس الدنيا جميعها.

خُلقت صورة مكبَّرة للجمال ، ومثالاً مصغّراً لجنان النعيم !

هي إنجيل الطبيعة أُنزلت فيهِ آيات الحسن ، ونمّق الدهر صفحاتهِ

بطراز البديع ؛ فيهِ وحيُ الحب ، والهام الشعر ؛ وكلّ لفظةٍ يحتويها ، تحتوي ألف معنىً من معاني العظمة والجلال !

فَرُوقُ درّة في فمِ البُسفور ، ولؤلؤة في عُنق الدردنيل ؛ هي عقد من الماس يصل بحر مرمره بالبحر الأسود ؛ هي تاجٌ من الجوهر على مفرقِ آسيا وأوروبا ؛ هي كوكب وقّاد أطلعتهُ الطبيعةُ بين الشرق والغرب ؛

ربِّ ان سمحتَ بأن نَعبُدَ الجمال فلِفروق السجودُ والعبادة !

* * *

وقفتُ على البوسفور حيث تمشّى من البحر الاسود ، وماشيتهُ الى حيث التقى بحر مرمره ، فلم أجد منظراً أعظم تأثيراً في النفس ، من مشية ذلك البوغاز الضيق ، العميق ، الطويل ، المتلوّي في مسيره ، كما تتلوّى الأفعى في زحفها

أحاطت بهِ من على ضفتيهِ : الأسيوية والأوروبية ، ربوع خضراء زاهية ، ومغانٍ مشجّرة تعانِق سهولها الماء في ذلك الوادي ، ثم تتدرّج في الصعود حتى تراها تلالاً عالية ، قريبة المآخذ ، متصلة الرؤوس بالكعاب كالرمح أنبوبٌ على أنبوب

وأطلّت مآذن الجوامع على قرنهِ الذهبي فتماوجت خيالاتها سابحةً في مياههِ الرائقة ؛ وتراكضت أشعة الشمس اليهِ ، فانعكست عنهُ الى جانبيهِ ، فتلهّى النسيم يلعبُ بها ، كما يتلهّى وليدٌ يلعبُ بانعكاس النور عن المرآة

ورأيتهُ ، ليلةَ عيد الدستور ، في أوائل الصيف ، وقد راق الجوُّ

وصفا أديمُ السماء ، وتلألأت الأنوار على ضفتَيهِ ، ومشت فيهِ البواخر مشمشمةً بالأضواء ، ونزلت اليهِ نجوم الفلك تغتسل فيهِ الى جانب الأشعة المتحدرة اليهِ من برَّي آسيا واوروبا ، في وسط الأنوار المتدفقه عليهِ من تلك البواخر السارحات الرائحات ؛ فأخذ هـذا المنظر بمجامع قلبي ، وسكتُّ مخافة ان يشغلني الـكلام بوصفهِ ، عن التمتع لحظةً بجمالهِ ؛ غير اني أسررتُ الى نفسي هذه الـكلمات :

طوبى لمن دفنهُ عبـد الحميد في البُسفور فقد ذهب الى الجنة من أقرب طريق !

***

أكان البسفور طريقَ الأحرار الى الجنة ، كما كان طريقَ وليِّ الدين بك يكن الى سيواس ؟؟؟ لست أدري ! غير ان وليَّ الدين نفسهُ يقول في وداع فروق يوم نفيَ منها :

« . . . واذا نحن نسير بين منظرين ما تفتحت الأعين على أحسن منهما : شطَّي آسيا وأوروبا ، يتناغيان بالمصابيح . عاشقان ضنَّت عليهما الاقدار بالتلاقي . مررنا بهما أم مرَّا بنا . لا أعلم . صحائف أجاد الحسن فيها منمقهُ . نشرت فانطوت . زلت عنها الأبصار وضاقت عنها الفهوم . فرائيها متخيّل وعارفها متوهّم . ما شئتَ ناظر الى السماء واليها ان تلك المصابيح كواكب سقطت عليها . عهدي بها في حالتيها ، بينا هي عرين اذا بها كناس . يخالط فيها كل زئير ليث عندلةُ عندليب . تتجاور بهـا مسارح آرام ومصارع كرام . تسقى من ماء معين ، ومن دم مهراق . تطالعها

وجوه ضاحكة، وأخرى مجهشة . تقسمتها مواسم الصبا فهي تارة مشتىً، وآونةً مصيف، وحيناً مربع . جنة يحرسها حارس جهنم . فروق يا ظلوم. خذي روحي فما هبطت عليّ الاّ فيكِ . كان بكِ مهدي . وأريد أن يكون بكِ لحدي . الوداع الوداع يا فروق . وسلام الله عليكِ وعلى بنيك كلهم . هذا طريد جديد . مظلوم يلحق بمظلومين . يخرجوني منكِ ليلاً لأراك في ثوب حدادك . أمن أجلي كل هذا ؟ كلا . بل حدادكِ على اختكِ الغزالة . أنا أضيعُ فيك من دمعة على خد مهجور . أنا أهون على الدهر من ذرّة من ذراتك ضلّت بين ثنيات الأثير . . . . . »

ما هذهِ بلاغة الواصف ، إنْ هيَ إلاّ حقيقة الموصوف !

* * *

رويداً رويداً أيها الدّهر ! ترفّقْ بفروق ؛ أقصرْ خطوَكَ عنها . فروقُ بنت الأجيال الطويلة ؛ مدينة الأمبراطرة ، وكرسيّ السلاطين . أفي كلّ يومٍ نكبةٌ تروعها ، وفي كلّ ساعةٍ كارثة تساق اليها ؟ بنوها يتآمرون على بنيها ؛ وشعوبها تقاتل الشعوب دفاعاً عنها . لوّثوا محاسنها بالدمِ المسفوك على مذابح المطامع والأنانية ؛ ضجّت الأرض لهول ما تلقاهُ من فظائع حربهم ، وانخمت ذئابُ الفلاةِ من اشلاء قتلاهم !

رويداً أيها الدهر ! هل أتعب مرورُ الأجيالِ كاهل بيزنطية ؟ خذ بيدها ! ان أنقاضها تتحرّك تحت فروق ! !